فلسفة اللغة

للأستاذ محمد ثابت الفندى

ليسانسيه فى الفلسفة

— ٢ —

بين اللغة والفكر تفاعل وارتباط وثيق ، فالألفاظ المجردة من فكر تدل عليه إنما هى ضوضاء وأصداء ، تتساوى فيها الأحياء وغير الأحياء : فدعاء الأنسان وعواء الكلاب ودوى الطبول تكون كلها حينئذ سواء . كذلك الفكر فهو أيضاً يحتاج إلى اللغة وإن صح أن يتخلى عنها أحياناً ، إذ الفكر بدون لغة إنما هو كمجرى من الماء لا انفصال ولا تمايز بين جزء وجزء فيه ، فمهمة اللغة هى تعيين تلك الأجزاء وفصلها إلى معان متمايزة . فالارتباط بين اللغة والفكر أمر مفروغ منه (١) ، و نريد الآن أن نعرض لمسألة أصل اللغة ومنشئها .

كيف نشأت اللغة ؟

عند ما ياخذ الأنسان يعالج أصول الأشياء وماضيها ، فذلك إيذان منه بأنه إنما يلج أبواب الفروض والنظريات ، بيد أنها ليست بالفروض الحرة ولا بالنظريات الطليقة من كل قيد ، ذلك لأنها — فى الحق ، ترتكز على أساس من الواقع الموجود ، وقد يكون هذا الأساس دينيا وقد يكون نفسيا وقد يكون غير ذلك ، ومن ثم اختلفت النظريات فى أصل اللغة باختلاف الأسس المنظور اليها .

فهناك النظرية « اللاهوتية » وقد أسماها ابن جنى فى كتابه « الخصائص » بالنظرية « التوقيفية » ، وملخصها أن الله هو الذى لقن الانسان اللغة ، و يصدر أنصارها من الاسلاميين فى رأيهم عن الآية : (وعلم آدم الاسماء كلها) ، و يرى لويس ده بونالد — أكبر أنصارها فى العصر الحديث — بانه لا يوجد فكر بدون لغة ، واذن فالله قد خلق الانسان متكلما كما قد خلقه مفكرا ، وهو ايضا يصدر عن آية وردت فى سفر (التكوين) بمعنى الآية القرآنية وهذه النظرية مردودة ، لأنها تتضمن كما يقول رينان — تصويرا ناسوتيا لأله يتكلم بألفاظ (مسموعة) تقع فى حيز الزمان والمكان ، وهذا ما ينبغى أن ننزه عنه البارى ، على أن النظرية لو صحت لكانت اللغة التى لقنها الله واحدة ، واذن فما شان هذا العدد العديد من اللغات ؟

(١) وقد بسطت مقال نشر بنفس العنوان فى العدد السابق من مجلة « المعرفة » الغراء .

وهناك النظرية « الفردية » التى ترى أن اللغة اختراع إنساني بحت . فكما أن المخترعات إنما ندين بها إلى العباقرة فحسب، فكذلك اللغة فهى اختراع « لفرد » عبقرى استطاع أن يفرضها على الجميع ، وأهم أنصارها ديمقريط اليونانى وآدم سمث الانجليزى . وهى نظرية مردودة أيضا ، اذ كيف استطاع المخترع ان يتفاهم مع الآخرين الذين لم يعرفوا لغة ما ؟ وكيف استطاع أن يجعلهم يقدرون نفعها ؟ إنه كمن يتحدث الى أصم لا يسمع .

وهناك النظرية « الغريزية » وهى لما كس مولير الذى درس لغات العالم المهمة دراسة فيلولوجية عميقة ، انتهى منها الى أن العالم تتقسمه ثلاث مجاميع لغوية كبرى : الهندواوروبية، والسامية ، والطورانية ، واستخرج من دراسة المجموعة الأولى ما يقرب من ٥٠٠ جذر Roots (أى مقطع أصيل) دالة على أعم المعانى العقلية ، و بفضل دراسات وليم ستشلوجل عمم مولير نظريته فى هذه الجذور، بحيث صارت جذورا المجاميع الثلاث بلا استثناء، ولتفسير أصل هذه الجذور الخمسمائة. إما أن يقال إن الانسان الأول تواضع واتفق على تحديد معانيها العقلية وهذا فرض يفرضه مولير لأنه يستلزم كون الانسان متكلما منذ الازل حتى يقوم بالاتفاق والتواضع، و إما أن تكون هذه الجذور قد خلقت وفهمت معانيها فى آن واحد، وذلك بفضل (غريزة) لغوية كانت فى الانسان الأول ، وهذا ما يقبله مولير ، هذه النظرية يمكن أن نجرح من جملة وجوه : أولا تفسير اللغة بغريزة لغوية هو من قبيل تفسير الشيء بما هو أغمض منه ، اذ أن فكرة الغريزة لا يلجأ اليها العالم النفسى الا عند ما تستعصى عليه كل الحلول الممكنة . ثانيا لا يمكن القول بأن تلك الجذور شائعة بين كل اللغات قديمها وحديثها ، اذ لو صح ذلك للزم أن الانسان الأول بدأ يتكلم بأعم المعانى العقلية وأكثرها تجريدا ، وهذا ما لا يمكن اسناده الى عقل الانسان الأول الذى لا يعرف الا الشخصات والجزئيات كما تدلنا عليه الآثار ولغات الشعوب المتأخرة المعاصرة لنا .

وأخيراً توجد النظرية « التطورية » وهى التى قبلها أفلاطون وليبنتز وجمهرة علماء علماء النفس وعلماء فقه اللغة ومنهم ما كس مولير فى كتبه الأخيرة . وخلاصتها أن اللغة بصورتها الحاضرة ليست إلا امتداداً للغة الطبيعية وتطوراً وارتقاء لها ، واللغة الطبيعية تصدر عن الحى من غير تعلم أو قصد ، كالصيحات المتنوعة الأنغام التى تصحب الفرح أو الحزن أو الغضب أو التعجب أو غير ذلك من الحالات النفسية ، و إذن كان الانسان اجتماعيا بفطرته فان صياح فرد من أفراد مجتمع من المجتمعات الانسانية يوقظ فى الأفراد الآخرين نفس الحالات النفسية ، وتصبح حينئذ هذه الصيحات المختلفة كعملة يتبادل بها الفرد عواطفه وانفعالاته النفسية مع أمثاله ، فهو يعيدها ويكررها فى كل مناسبة و يستعملها كأداة للاتصال بشعور غيره . فاذا أدرك الانسان على هذا الوجه معنى « الدلالة » — دلالة الصيحة على انفعال

نفسانى معين — فليس عليه إلا أن يوسع دائرتها و يعمم استعمالها فتنشأ عن ذلك اللغة الاصطناعية الملفوظة . ثم إن هذه اللغة ترتقى بقدر ارتقاء خيال المتكلمين بها ومقدرتهم على إدراك المشابهات التى تؤدى بهم الى « الاستعارة » ، فالاستعارة عامل مهم من عوامل رقى اللغة واتساع مفرداتها المعنوية ، فكم من لفظ كان يدل على شىء من الأشياء ثم استعير لشىء آخر : مثلا لفظ الجوهر كان يعنى أصلا الحجر النفيس ثم استعير لمعنى فلسفى عميق التجرد هو ما يقابل العرض ، وقس على ذلك مختلف الاصطلاحات العلمية .

و يتصل بأصل اللغة أصل الكتابة ، و يجمع البحاث على أن الكتابة بدأت بهيئة تصويرية تمثل صور الأشياء بأعيانها ، فاذا كان الشىء المراد كتابته معنى مجرداً قرب من صورة حسية تلائمه ومثال ذلك معنى « السعادة » فهو يكتب باللغة الصينية بشكل سيدة تحت سقف منيع ، ولعل المنظور فى هذه الصورة أن المرأة الناعمة الهنية البال هى التى يحميها صاحب بيت منيع ، وأقدم اللغات المكتوبة كالهيروغليفية والصينية واليابانية هى كتابات تصويرية . و يرى بعض العلماء أن نشأة الكتابة التصويرية إنما كان لغرض سحرى ، إذ الانسان الأول كان يعتبر الصورة المرسومة كطلسم يؤثر فى الشىء المصور أو يجرده من قوته ، ومن ثم نبتت فى الانسانية فكرة الرقى والتمائم والأحجبة ، و يرى البعض الآخر أن الغرض منها كان فنياً بحتا فالكاتب الأول — كما يقول دشلت — كان مصوراً يتلمس اللذة الفنية فيما يصور ، ولا يزال الشرق الأقصى يعتبر الخط فنا من الفنون الجميلة ، والخطاط فناناً بكل معانى الكلمة . ثم تطورت الكتابة بعد ذلك فصارت رسما للاصوات لا للاشياء : فجزئت الأصوات إلى أجزاء كل منها يصوره حرف من حروف الهجاء ، وأول الأمم التى عرفت الحروف الامة الفينيقية والأمة الاغريقية ، فأما الاولى فقد عرفت الحروف الساكنة دون المتحركة وانتشر أسلوبها فى الشرق الاسيوى ، أما الثانية فقد عرفت الساكن من الحروف والمتحرك وانتشر أسلوبها فى الغرب كله ، ولاشك ان الأخيرة أسهل من الاولى لكثرة الحروف المتحركة بها ، ونلاحظ هنا أن اللغة العربية تستعيض بما يسمى « الشكل » عن كثير من تلك الحروف المتحركة ، وآخر ما بلغت اليه الكتابة من الرقى والاختصار فن الاختزال والكتابة بالشفرة ، ولقد سبق مسلمو الأندلس أهل العالم كله فى استنباط أصولها .

هذا هو ماضى اللغة — ملفوظة كانت أو مكتوبة — فاذا يكون حاضرها و مستقبلها ياترى؟

أما اللغة فعدد من اللغات واللهجات لا يقل عن ٤٠٠٠ لغة ، وهذا العدد الوفير و إن يكن السبيل الوحيد لتنويع الآداب إلا أنه يباعد بين الأمم والشعوب و يبث فيها روح التمايز والتباين ، لذلك لجأ بعض الذين يحلمون بالحلم الذهبى وهو تكوين مجتمع إنسانى لاتستشعر

فيه أمة أنها تمتاز أخرى ، إلى إيجاد لغة أممية يتكلم بها العالم أجمع ، وتيسر طلب العلم كما توفر شيئا من المجهود الذى يبذله التلميذ في تعلم لغة من اللغات القديمة الممتازة بالصعوبة ، وهذا هو مستقبل اللغة ، مستقبل تسوده لغة واحدة عالمية . أما هذه اللغة الأممية فهى عند بعض المفكرين «الاسبرانتو Esperanto »وعند البعض الآخر لغة«الادو Ido »أما الأول فاختراع زامنهوف العالم الروسى (١٨٨٧) وهى مكونة من مقاطع وجذور أساسية مستعارة من اللغات الأوربية الحية يعرف الفرنسى منها نحو ٧٥ فى المائة وكذلك الانجليزى والالمانى ، وعدد قواعد نحوها وصرفها ١٦ قاعدة ليس يشذ عنها شيء وهـذا هو أقصى ما تصل اليـه لغة فى سهولتها ، ويقوم المكتب الرئيسى للغة الاسبرانتية فى رقم ٥١ ، شارع Clichy ببارس . اما اللغة الثانية فقد اقترحها مجمع علمى سنة ١٩٠٧ وتمتاز عن سابقتها بزيادة فى السهولة الى حد أن شهراً واحداً يكفى لاتقانها ، ويوجد مكتبها فى باريس فى شارع Rochechouart رقم ٨٣ ولقد خطت جمعية الامم الخطوة الأولى فى تحقيق هذا الحلم الذهبى فأقرت فى سبتمبر سنة ١٩٢٤ استعمال اللغة الاسبرانتية فى الرسائل التلغرافية

محمد ثابت الفندى

لا تفعل الخير

« بقية المنشور على الصفحة ٨٣٧ »

الجار — ولكنه كان من الممكن أن يأتى فى الدرجة الثانية .

مدام بروسبر — كلا ! والدليل أنه كان الأول !

بروسبر — حقا . . . إن قرينتى تتكلم برزانة . . . مسكينة أنت ، كان باستطاعتى أن أشترى لك بألفين وثمانين فرنكا أثواباً جميلة ، وحلى نادرة ، و . . .

مدام بروسبر — (تزداد حنقاً) أسامع أنت « مسيو كاميس » ؟ أسامع أنت ؟ إنه عمل غير شريف . . . أنت رجل لاشرف لك ! ! !

الجار — ولـكن . . . سيدتى . . .

بروسبر — اخرج من هنا مسيو « كاميس » إنى لا أعرفك بعد اليوم ! ! !

مدام بروسبر — اخرج من هنا . . . اخرج ! ! ! . . . نحن لم نعد نعرفك . . . ! ! ! اذهب اعمل الشر لغيرنا ! ! !

الجار — (وقد وصل إلى الدرج . وأوصد الباب فى وجهه بعنف) هذا الدرس يعلمنى كيف أعمل الخير للبشر ! ! !

حلب

ايزاك موسى شموش